

● مقدمات في التفكير المجتمعي

■ الشيخ محمد العليوات*

مقدمات في نظام التفكير المجتمعي

يمثل نظام التفكير المجتمعي مؤشراً على المستوى الحضاري الذي تبلغه الأمة، المجتمع، الجماعة... صعوداً أو هبوطاً، تقدماً أو تقهقراً، حيث يمثل نظام التفكير روح الأمة التي تسري بين جنباتها، ويحدد مكانتها بين الأمم، ويصنع مستقبلها سعادة أو شقاء. إن نظام التفكير عند أي أمة يمكن أن يصعد بها إلى الأعلى، أو يهبط بها إلى الحضيض، بل إن حركة الأمم، والمجتمعات ومواقفها وسلوكها ما هو إلا مرآة وصدى لنظام التفكير، وتشكل العقل الجمعي، فكلما اكتنز وامتلاً وتكثف نظام التفكير بالعناصر الإيجابية حققت الأمة مستوى حضارياً متميزاً، والعكس صحيح، حيث تهوي الأمم إلى قاع التخلف عندما يفتقر نظام التفكير عندها إلى العناصر الإيجابية، وتحتل عناصر السلب المساحة الأكبر.

إن نظام التفكير المجتمعي العام يعمل كموجه للسلوك الفردي والجماعي في بيئة متشابهة من حيث المكونات العقدية والثقافية والاجتماعية والتاريخية والسياسية وغيرها... فتتشابه عند ذلك ردود الأفعال، والمواقف الفردية والجماعية، بحيث تتلاشى الفوارق بين الجميع، ويمكن للباحث التنبؤ غالباً بمواقف الأشخاص من مختلف القضايا والأحداث إلى حد ما وبشكل معقول.

* عالم دين، مفكر إسلامي، السعودية.

إن عملية الإصلاح المجتمعي بدل أن تُؤغل في مفردات ثقافية أو فكرية لا نهاية لها، ويقع الجهد الإصلاحي المبذول في جزئيات كثيرة لا حد لها، وتُهمَل الأولويات التي تشكل البنى التحتية للتفكير والسلوك، كان من المهم قبل ذلك كله معالجة الأصول التي تشكل بنية التفكير، ونظامه، ومكوناته وعناصره، حيث هي المفاتيح الرئيسية المؤثرة والحاسمة غالباً في طريقة التفكير، واتخاذ المواقف وتشكل السلوك.

إن تلك الحالة تشبه إلى حد ما الدوائر الإلكترونية الموصلة مع بعضها في نظام تتحكم به بضعة أزرار فحسب، حيث تتشكل مفاتيح التشغيل والتوقف.

إن العمل على تشخيص الاعتلالات في نظام التفكير، وإصلاحها يختصر جهوداً كثيرةً للوصول إلى نتائج أفضل في سبيل تحقيق مكاسب إيجابية على طريق الإعداد الحضاري. بل إن أي مكسب لا يمكن الحصول عليه بشكل دائم ومعبر عن حالة تغييريه جديدة دون تحقيق اختراق حقيقي في صياغة نظام التفكير وإعادة بنائه، فالحديث مثلاً عن حل مشكلات الأزواج وقضايا الاحتراب السياسي وغيرها من المشكلات الحادة لن يُحدث تقدماً ملموساً وبشكل دائم في ظل نظام تفكير سيئ، لا يعالج المعطيات بطريقة سليمة، حيث يكون التأثير آنياً ومؤقتاً أشبه بعمليات التخدير التي سرعان ما يتبدد تأثيرها، وسرعان ما يعود الألم إلى المريض ولا يفارقه إلا مع حصول الشفاء، وكذلك فيما نحن فيه، فانحسار المشكلات المجتمعية المختلفة يعتمد على حدوث صياغة سليمة لطريقة التفكير، وطروء مؤثرات تعمل على تشكيل العقل بطريقة إيجابية، حيث يتمكن من معالجة المعطيات، والوصول إلى النتائج والأحكام والمواقف بطريقة متوازنة، وبالطبع مع حساب المؤثرات الكثيرة والمعقدة والتي تكتنف عمليات التفكير.

إن الاقتراب من نظام التفكير العام في المجتمع، وتفكيك مكوناته وعناصره وألغازه وأسراره والعوامل المعقدة المؤثرة فيه، يمكّن المصلحين من رسم خريطة أكثر وضوحاً للتعامل مع قضايا المجتمع المختلفة بفهم دقيق، وسبر عميقة لمشكلاته، ويوفر فرصة أكبر للتغيير والإصلاح والابتعاد عن التسطّيح، والشعارات، والكلمات الإنشائية، فلا ينفع، أحدث الديكورات والأصباغ في جدار مهترئ، آيل للسقوط، إن أفضل المفاهيم وأنقى الأفكار لا تعمل في نظام جامد ومتحجر، وربما هذا ما تشير إليه الآية الكريمة ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(١).

فحتى القيم الإلهية لم تعمل فيهم رشداً، ولا هداية وربما عملت نفس الأفكار بكفاءة عالية في بيئة أخرى حيث يوجد نظام تفكير حر ومتجدد وحيوي.

نظام التفكير والعناصر والمكونات:

يعتمد نظام التفكير ويتغذى على مجموعة من المفاهيم الرئيسية وهي بدورها تمنحه

التجدد والإبداع والرشد، أو تؤدي به إلى التحجر والموت والجهل، وتسوقه إلى حتفه. إنه أشبه بمصباح يوقد من زيت يضيئه ويزيده توهجاً إذا كان زيتاً نقياً وخالصاً، ويصبيه الوقود الرديء بالعتمة والانطفاء فيكسوه ظلمة في ظلمة.

وإذا كانت الثقافة الحية من إنتاج نظام تفكير حي فإن المفاهيم السليمة هي عصب نظام التفكير الحي، ومكون أساس في عمله. «فالمفاهيم ليست أفاضلاً كسائر الأفاضل، وما هي مجرد أسماء وكلمات يمكن أن تفهم وتفسر بمرادفاتها... بل هي مستودعات كبرى للمعاني والدلالات كثيراً ما تتجاوز البناء اللفظي وتتخطى الجذر اللغوي لتعكس كوامن فلسفة الآية، ودقائق تراكمات فكرها ومعرفتها وما استبطنته ذاكرتها المرئية»^(٢).

وتأكيداً على ضرورة تحصيل المفاهيم الصالحة التي تصنع نظاماً للتفكير الراشد ربما أشار القرآن الكريم لجملة من القضايا والمسائل المرتبطة بالمفاهيم بهدف تصحيح مسار النظام المذكور وتوجيهه وإعادة بنائه لإنتاج سلوك متوازن يؤسس للنهضة والانبعاث الحضاري.

فهذا القرآن الكريم ينهى المسلمين عن اعتناق مفاهيم خاطئة سادت بني إسرائيل خشية أن تكون هذه المفاهيم الخاطئة جزءاً من نظام تفكيرهم، وأحد مكوناته، فيتسبب في إعادة حركتهم الحضارية. يقول عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنًا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٣).

وربما يستفاد من هذا التوجيه القرآني أن بني إسرائيل كانوا في أخريات حياتهم يطالبون بتخفيض واجباتهم ويكررون كلمة (راعنا) للتصل من واجباتهم في كل ما يأمرهم به أنبياءهم^(٤).

فالانهيار الكبير في بني إسرائيل جعلهم كأمة يفقدون معنى التطلع والإنجاز وتحقيق المكاسب الحضارية. إن كلمة (راعنا) تحمل في مضمونها معنى الإهمال والإعفاء وكأن الواجبات الشرعية والإنسانية أصبحت بمثابة الأثقال الضخمة التي لا يمكن تحملها والقيام بها، حيث تتلاشى الأهداف والتطلعات السامية، وتندم دوافع الحركة والإنجاز وبالتالي فإن (المفهوم) المتولد من كلمة (راعنا) مفهوم سلبي جامد كره يقتل روح التطلع والحركة والنهضة ويعطي مدلولاً سلبياً يشير إلى التحلل من المسؤوليات الضخمة والانشغال بما لا يكلف الإنسان جهداً كبيراً وحركة جادة، مما يفقد الأمة القدرة على الحركة الحقيقية. إنها عندئذ أشبه بحركة في المكان لا غير.

نموذج المفهوم البديل:

وإذا كان المفهوم السلبي (نموذج راعنا) يعيق حركة الأمة التصاعدي بسبب تحللها من مسؤولياتها الرئيسية والخطيرة والحاسمة، فإن الأمة لكي تكتسب نظام تفكير سليم

بحاجة إلى أن تتغذى على المفهوم الإيجابي، وربما كانت كلمة (انظرنا) تعبر عن المفهوم الإيجابي البديل والذي يعنى الإهمال⁽⁶⁾.

ويحتمل ترجمة معنى الإهمال (الإنظار) إلى حركة السعي الحثيث لتكوين حالة من الجهوزية والاستعداد الفعلي للعمل والتهيؤ لتحقيق الإنجاز، وتوفير مقدمات الفعل الشرعي والحضاري، وإن تلك المقدمات لتكوين حالة من الجهوزية للعمل والإنجاز ليس للتخفف والتصل من أهم المسؤوليات الشرعية والحضارية، وليس للهروب من التكاليف الإلهية، وليس للارتداد إلى الوراء، والتقوقع خلف الحياة السهلة، والتكاليف المريحة، وإنما سعياً لتكوين شروط الإنجاز والفعل الحضاري، فلا مجال للهروب من حمل التكاليف الإلهية، وإنما بقدر منح الذات طاقة للحركة والفعل، واستيعاب المهمة، وليس لتبرير التوقف عن الفعل، والتغطية على التنصل من المسؤوليات.

وإذا درسنا واقع الأمة على ضوء المفهومين القرآنيين السالفين المتباينين فنلاحظ سيادة وغلبة مفهوم (راعنا) على (انظرنا).

فالمأمل في حالة الأمة الإسلامية اليوم يلحظ انسحاباً جماعياً كبيراً وكثيفاً عن تحمل المسؤوليات الجسيمة والعظيمة والمهمة وذات المضمون والمعنى التي تعمل على صياغة تقرير مصير الأمة، وتشكيل مستقبلها.. وربما أدى ارتفاع كلفة هذا المستوى من العمل، وما يصيب المسلم من عناء ومشقة إلى الهروب صوب التكاليف السهلة والمريحة والخفيفة على النفس فإذا أردت أن تحصي أعداد الناس المشاركين في برامج إفطار الصائمين على نطاق العالم الإسلامي، فإنك ستجدهم بالملايين... وهكذا في كل عمل صالح مماثل له، في حين تعاني الأعمال الجادة التي تصنع مصير الأمة من فقر شديد، وشح في الموارد البشرية الراغبة في بناء الأمة، وتحمل التكاليف الشاقة في سبيل ذلك.

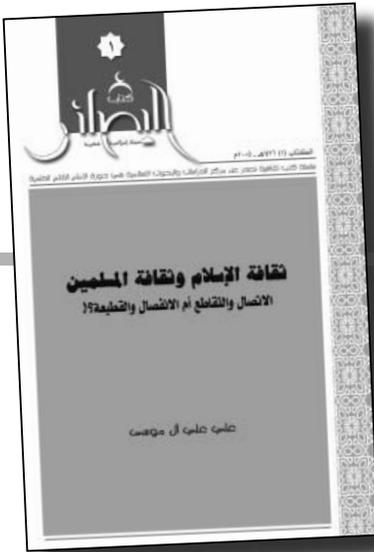
وربما إشارات الآية المباركة في قوله تعالى: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾⁽⁷⁾ إلى هذا المعنى سالف الذكر وإلى أحد مصاديق المفهومين المتباينين. فسقاية الحاج، وعمارة المسجد الحرام برغم أنهما عملان جليلان مباركان مطلوبان شرعاً إلا أنهما لا يرقيان في الفضل ودرجة المطلوبة إلى جهاد بناء المستقبل الحضاري الإسلامي، فإن المهمة الأخيرة هي الأصعب والأشق على النفس والاصلاح لمستقبل الإنسان وحضارته.

إن جزءاً كبيراً من واقع التخلف الذي تعيشه الأمة الإسلامية يعود إلى نظام التفكير السائد الذي يعشق العمل المريح: الأريكة، الكرسي الدوار، الطاولة ويفرّ من أهم الأعمال وأشقها: البحث العلمي، المختبر، وتتمايل شرائح اجتماعية من الأمة على الصوت الرخيم لقارئ القرآن وترفع أعلى الأصوات على نغمات الموشحات الدينية، لكنها تخفض صوتها في مطالباتها بنظام عادل يساوي بين الناس في الحقوق والواجبات، ويتيح للجميع فرصاً متكافئة وعادلة، ويمنحهم حرية انتخاب من يمثلهم، ويحافظ على كرامتهم الإنسانية. أليس كل

ذلك الخفض والانخفاض جراء ثقل المهمة وعظيم شأنها.
وبدل أن نرفع لواء الإصلاح لإعادة الأمور إلى نصابها فإننا نستقيم ونستريح ونستسلم
لأوضاعها الكئيبة البائسة وكأنه مصيرها المحتوم المكتوب في لوح القضاء الذي لا يبدل □

الهوامش:

- (١) سورة البقرة، آية ١٧١.
- (٢) بناء المفاهيم (دراسة معرفية ونماذج تطبيقية) ج ١ ص ٧.
- (٣) سورة البقرة، آية ١٠٤.
- (٤) المدرسي، آية الله العظمى السيد محمد تقي، من هدر القرآن ج١٣، ص ٢٢٨، دار البيان العربي.
- (٥) راجع المصدر السابق ج١٣ ص ٢٢٧.
- (٦) سورة البقرة، الآية ١٨.



صدر حديثاً

الآن في الأسواق كتاب البصائر - الإصدار الأول.

ثقافة الإسلام وثقافة المسلمين

الاتصال والتقاطع أم الانفصال والقطيعة؟!

لمؤلفه: علي علي آل موسى

يضم بين دفتيه فكراً رسالياً يحمل هم الأمة والنهوض، يناقش فيه الكاتب رؤى فكرية متعددة، ينتقد ويحلل ويؤسس وكل ذلك بروح علمية أكاديمية مسؤولة، لا يقف عند حاجز من العرف أو ما هو مسكوت عنه ما دام الأمر يدخل ضمن التأسيس لوعي نهضوي يسهم من خلاله الكاتب في التشكيل لعقل عربي خال من أوهام التاريخ أو الأعراف والتقاليد.